

الفصل السادس

المورة

لم تكن حملة إبراهيم موفقة في أول أمرها ، وذلك أنها بعد أن أقامت قليلا في خليج مجرى Magri واصلت السير حتى جزيرة رودس ، فوصلتها في الثالث عشر من أغسطس عام ١٨٢٤ . وهناك اتصلت بالأسطول التركي الذي كان يقوده خسرو . ورأى القائدان أن تكون تحية اجتماعهما حملة صادقة يبددان بها شمل الإغريق . ولم يكن ميولى Miauli وكنارى Canari أقل رغبة في القتال من إبراهيم وخسرو . وكانا من البحارة المجريين ، يفهمان عقاية عدوهما ، ويعرفان أن خسرو — أو ضباطه على الأقل — أضعف من أن يحتمل هجوماً على غرة . ولذلك كانت خطتهما أن يبدأ بالهجوم ليزقا شمل العمارة العثمانية ، قبل أن تنضم لها مراكب المصريين . وقد وصف أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا يعملون في أسطول إبراهيم سير المعركة وصفاً موجزاً فقال :

« أقلعت سفن القبطان باشا (خسرو) في أول النهار ؛ أما مراكبنا فتركت مراسيها في الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه . وبعد أن أطلق القبطان باشا وسفنه على العدو طلقات قليلة ، نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مقرهم ، ترعد فرانسهم ، ويسكن الرعب جوانهم ؛ وكان فرارهم من سفائن تجارية مساحية . وقد غر ضباطها هذا الجبن ، فاندفعوا وراء أعدائهم ، حتى أتوا إلى مجاز ضيق ، وقفت فيه قوات أكثر منهم عدداً . وما وافت الساعة السادسة حتى التحمنا

بالعدو . ولكن بعض فرقاطاتنا رأّت من الحكمة أن تخرج من المعركة ، فبقينا وحدنا تقريباً ؛ واستطاع إبراهيم بجراته وصادق بأسه أن يصد سيل الإغريق الجارف . فلما رأى هؤلاء أن أمامهم خصما قويا لم يحسبوا له حساباً من قبل ، هموا بالرجوع وارتدوا ارتداداً يشهد لهم بالبراعة »^(١) .

واضطّر إبراهيم على أثر هذه الهزيمة أن يرجع إلى كريد ، يتربص فرصة تسنح له ، لتمكنه من إنزال جيشه إلى بلاد المورة . ولا حاجة بنا إلى القول إن مسلك خسرو العجيب أمام شاطئ رودس لم يزد محمداً عليا وابنه إلا بغضاً لفكرة القيادة المزدوجة . ولقد كان خسرو والباشا من قديم الزمان خصمين استحكمت العداوة بينهما ؛ ويرجع أصلها إلى العهود القديمة أيام أن كان محمد على لا يزال ينازع المماليك السيادة على مصر . أما الآن فقد كان يحركه سبب أجل من الكراهية الشخصية ؛ ذلك أنه كان من بادي الأمر يبغض فكرة تقسيم السلطة ، ولذلك كتب إلى الباب العالي في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٤ كتاباً جمع بين الأسف وشيء من الغبطة الشخصية فقال :

« يؤسفني كل الأسف أن ما طلبته من توحيد قيادة الأسطول كله لم يجب ، وأن هذا الشرف لم ينله ولدى إبراهيم . وليس بخاف أن النصر في المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد . ذلك بأن اختلاف الرأي لا بد أن يؤدي إلى هذه النتيجة السيئة . وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة »^(٢) .

ولقد أثمر الثمرة المرجوة هذا التهديد المقنع ، الذي اشتملت عليه الفقرات

(١) دريو حملة كريد والمورة (١٨٢٣ — ١٨٢٨) ص ٤٠ .

(٢) مجموعة رسائل محمد علي : القاهرة المطبعة الأهلية سنة ١٩١٣ الوثيقة رقم ١٥٨ .

الأخيرة من الخطاب ، وهو أن محمداً علياً وإبراهيم قد يضطران إلى التفكير في الانسحاب من ميدان القتال ، إذا لم يعين إبراهيم قائداً أعلى للقوات البرية والبحرية المشتركة . وعلى ذلك ولى إبراهيم وحده قيادة الحملة التركية المصرية . وعندئذ صحت عزمته على أن يقضى الشتاء في كريد^(١) . وما كاد يستهل فصل الربيع حتى أبحر إلى مودون Modon ، وهي ثغرى في بحر اليونان كان يعرف في قديم الزمان باسم ميتون Methone ، فبلغه هو والقسم الأول من أسطوله في ٢ مارس سنة ١٨٢٥^(٢) .

وكان إبراهيم شديد الحرص على هذا السفر المبكر لأن عيونه أبلغوه أن النزاع قد دب في معسكر الإغريق . وما أصدق ما قاله بلوتارك منذ قرون من « أن التاريخ يعيد نفسه » . فقد ولدت اليونان الحديثة في مهد النزاع والشقاق ، ولم تدق للسلم الداخلي طعماً ، حتى وقت أن كانت تكافح في سبيل وجودها ؛ بل كانت الأحزاب اليونانية في عام ١٨٢٤ تتناحر ، وفي صدورهما من الغل ما لا يقل عما كان في صدورهما منه في عام ١٩٣٤ ، أو في أى عام آخر نذكره من غير تفكير ولا تعمد .

شبت الحرب الأهلية بين الأحزاب اليونانية في عام ١٨٢٣ ؛ ولما تم عقد القرض الكبير في أوروبا عام ١٨٢٤ وجاءهم بيرون Byron بالنجم الأول منه ، لم يكن هذا المال طريقاً إلى طلبتهم من الحرب الخارجية فحسب ، بل كان أيضاً سبباً جديداً من أسباب النزاع الداخلي . فقد كانوا من قبل يقتتلون لنيل السلطان فأصبحوا الآن يقتتلون أيضاً ليحرز كل منهم حظه من الغنيمة . وبدأت بذلك

(١) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) دربو حملة كريد والمورة ص ٥٥ .

« الحرب الأهلية من جديد »^(١) ، كما تقول دائرة المعارف البريطانية . ولما دارت الدائرة على كولوكترونس Kolokotrones وحزبه زج هذا الزعيم في السجن كما زج جوناريس Gounaris في السجن بعد ذلك بقرن من الزمان . ولم يقتل كولوكترونس ولكنه اتهم في إخلاصه ووطنيته . ولسنا نقصد بهذا القول أن التهم التي وجهت إليه كانت أصح أساساً من التهم التي وجهت إلى جوناريس أو التي توجه الآن إلى فينزيلوس Yenizelos ، بل كل ما نقصده أن إبراهيم رأى وهو في مقره الشتوى في كريد عام ١٨٢٣ — ١٨٢٤ ، أن يسرع إلى بلاد المورة ليستفيد من الخلاف الداخلى المستحكم بين الزعماء اليونانيين .

وكان البحارة اليونانيون في تلك الأيام ، سواء سميناهم وطنيين أو قرصاناً ، مرة بواسل ؛ كما كان سكان الجزائر الذين انضموا إلى الجيش اليونانى وحاربوا تحت إمرة تشرش Church وكهرين Cochrane وثبقيه Fabvier وروش Roche ورينولد ده سانت جن دنجيلي Regnaud de Saint Jean d'Angily رجالاً أنجاداً أولى بأس وعزم . ولكن ما ذا تجدى الجرأة والبسالة والإقدام وسعة الحيلة ، إذا ما قعد بها الشقاق والغدر وراء صفوف القتال ، وكان أمامها جنود لا يقلون عن أصحابها قوة عزم وسعة حيلة وصدق وطنية ، يقودهم رجل كإبراهيم . وهكذا استطاع القائد المصرى أن يضرب الحصار على نوارين Navarine ، معقل بلاد اليونان . ولم يلبث هذا الحصن أن سقط في يده في الثامن عشر من شهر مايو . وما وافى اليوم الثالث والعشرون من يونية حتى سلمت تريبوليتزا Tripolitza ؛ وفي الخامس عشر منه كان الجيش يستحث الخطى نحو نوبليا

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة تحت عنوان « حرب الاستقلال اليونانية » الجزء الثانى عشر ص ٤٩٤

Nauplia قصبة بلاد اليونان^(١) . وارتفعت أوروبا لما رأت من سرعة هذا الفتح ، فمقدت نيتها على أن لا يستكين الصليب للهلال ، وعلى أن لا يقذف إبراهيم في البحر فبشييه Fabvier « الضابط الفرنسى القدير » الذى يقود « جنوداً ذهبى ريجهم وتضعضعت أركانهم »^(٢) ، وصممت على أن تقوم بعمل يرغم رجال السياسة على إنقاذ ذلك الشعب الباسل من الانقراض . لكن كيف يمكن الوصول إلى هذه النتائج ؟ وكيف استطاع صد القائد المسلم المظفر وهو على أبواب النصر المبين الحاسم ؟ إن ذلك لا يكون إلا إذا استطاع الدعاة أن يدخلوا فى روع الناس أن القائد المصرى هو الشيطان بعينه ، هو أتيللا Atilla المستبجح دماء النساء والأطفال . وبذلك تحركت فى صدور رجال من ذوى الشرف والنزاهة عوامل البغضاء ، فأطلقوا خيالهم العنان ، وأخذوا يتهمون إبراهيم بخرق حرمة جميع قوانين الحرب « المتمدينة » .

لقد أشرنا من قبل إلى ما يسميه دروفتى Drovetti ، القنصل الذى كان يمثل كلا من فرنسا والروسيا ، « الآراء الإنسانية » التى كان يسترشد بها محمد على عند ما وجه إبراهيم إلى بلاد اليونان . على أننا نسلم بأن الأوامر التى تصدر إلى الضباط فى الميدان ليست كبيرة الجدوى ، وأن أهم شئ فى المسألة هو كيفية تنفيذ هذه الأوامر . ولذلك كان من حسن حظنا أن عثرنا على شهادة رجل فرنسى يدعى لوفرني Louvergne كان فى بلاد المورة أثناء الوقائع التى دارت رحاها فى عام ١٨٢٥ . وفى كتابه المنشور فى عام ١٨٢٦ ما يشهد بإخلاصه وأمانته قال :

« وفى اليوم الثانى تقابلت مع سليمان ودار بينى وبينه حديث طويل

(١) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٩٤ .

(٢) لين پول فى كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٤٢ .

أخبرني في سياقه أن محمداً عليّاً حتم على ابنه أن يوسم نزوله في بلاد المورة بميسم الرأفة ، لكي ينطبع في نفوس رعاياه الجدد أنه لم يأت ليحاربهم بل ليهديهم نورتهم .»

وبعد أن أيد لوثرني Louvergne بقوله هذا ما أنبأتنا به من قبل الرسائل القنصلية ، أخذ يصف ما كان الحال الذي جاء به بيرون من أوروبا من أثر سيء في قوة اليونانيين المعنوية ، وبعد أن استنتج من ذلك أن إبراهيم لم يكن يستحيل عليه أن يصل إلى نوارين بشرائه ضمائر اليونانيين قال :

« ولو تم له ذلك لنادى به السكان والياً على المورة ، ولأعان هدنة عامة إرضاء لليونانيين الذين استسلموا له . ويؤيد رأيي هذا ما شهدته بنفسى في سهول مودون Modon ؛ فقد رأيت الفلاحين اليونانيين يقبلون يد إبراهيم ، وهو يأمرهم بالانصراف قائلاً لهم : أبلغوا الناس جميعاً أنى أبوكم وأنتى لن أقسو إلا على العصاة الثارين »^(١) .

لكننا لا نعلق على هذه الشهادة أكثر مما تستحقه من الأهمية ، فقد يفهم البعض من قول إبراهيم : « إننى لن أقسو إلا على العصاة الثارين » أنه كان يعامل أعداءه بمنتهى الشدة ، وإن كنا نحن لا نقبل هذا التأويل ، ونفضل أن ننظر إلى المسألة نظرة أخرى ، نقيم الدليل عليها من حياة لورد اسرتفورد ده ردكلف . فقد نقل استانلى لين پول عن جورج كاننج وزير الخارجية البريطانية وقتئذ أنه كتب إلى سفيره في الأستانة يقول : « أظن أنى قد وصلت إلى ما يشرح صدرك إن لم أقل ما يرفع قدرك ، بعد أن هيات لى سبباً جديداً للتدخل ،

(١) ذكريات عن اليونان في أثناء حملة ١٨٢٥ تأليف هـ . لوثرني طبعه في باريس أبريل ده جاستل سنة ١٨٢٦ ص ٦٧ .

أجل شأنًا من أى سبب آخر كنا نستطيع أن نتعلق به للوصول إلى بغيتنا ؛ ذلك هو الخطوة التي تسير عليها الحرب في المودة في الوقت الحاضر ، تلك الخطوة البربرية التي ترمى إلى بربرة المودة . حقا لقد طالما رأينا الطرفين يسفكان دماء الأسرى ، لكن بيع الناس كالعبيد في الأسواق ، وإرغامهم على ترك دينهم ، وإخراج المسيحيين من بلادهم ، وإسكان المسلمين في ديارهم ، تلك كلها موضوعات (أستغفر الله بل حقائق) جديدة في نوعها ، جديدة في المبادئ التي تقوم عليها ، جديدة وغريبة في آثارها ، ولم يكن أحد يتصورها من قبل . ويقينى أنه استطاع اتخاذها أساسا جديدا للقول إن لم أقل للعمل . . . ومما يزيدنى حبا لها أنها لا شأن لها بأامينداس أوسانت بول (الرسول الموقر) «^(١) .

ويبدو لنا أن هذه الرسالة التي بعث بها وزير خارجية إلى سفير له تظهر بأجلى بيان موقف الغرب من إبراهيم على الرغم من صفتها الشخصية . فهي تتهمة بسفك دم الأسرى ، ولكنها تقول إن اليونانيين سلكوا نفس هذا المسلك ؛ ولم تذكر لنا أى الفريقين كان هو البادئ بهذا العمل الشنيع . فإذا كان الثوار هم الذين بدءوا به فما أجدرهم بتحمل عواقبه كلها . ولما كانت معلوماتنا في هذه الناحية ناقصة ، فإننا نقر صراحة أننا لا نستطيع أن نقف على الحقيقة بأكلها . لكننا مع ذلك نشعر بأننا لا نخطئ إذا استنتجنا مما كتبه جورج كاتنج إلى ابن عمه أن وزارة الخارجية كانت تتلمس الحجج لتبرر بها هجومها على إبراهيم . والتهم التي توجه إلى إنسان بمثل هذا الروح تكاد تكون على الدوام عرضة للنقد والتجريح .

(١) ابن بول في كتابه السالف الذكر الجزء الأول ص ٤٠٣ ومعنى قوله إنها لا شأن لها بأامينداس أوسانت بول أنه لا شأن لها بالوطنية أو الدين بل أساسها المبادئ الإنسانية .
(المغرب)

ويوافق صاحب سيرة لورد استرنفورد ده رد كلف على أن ما يسميه جورج كاتنج « بربرة » المورة لم يكن معظمه إلا دعاية محضة ، انظر إلى قوله :
 « وكان الرئيس أفندى إذا ووجه بهذه المقايح أعرض عنها ، فأنكر بعضها وادعى أن في البعض الآخر مغالاة ، وانتهى بقوله إن اليونانيين لم يكونوا خيرا من رجاله . ومما يؤسف له أن هذا القول صحيح كما يشهد بذلك سقوط ترولتزا ونوارين ، فقد اضطلع الثوار بحظ وافر من الغدر والتقتيل ، حتى اضطر كاتنج نفسه إلى الاعتراف بأنه على الرغم من حبه الخير للإغريق ، لا يستطيع أن ينكر أنهم جميعاً ، إلا قليلاً منهم ، فئة ضالة منحطة »^(١) .

على أننا لا يسعنا أن نوافق على هذا الاتهام الشامل ، الذي يعزوه لين پول إلى لورد استرنفورد ده رد كلف . وإذا كنا قد نقلنا هذا القول فليس ذلك لأنه يتفق مع آرائنا ، بل لأننا نريد أن نظهر منشأ المطاعن التي وجهت إلى إبراهيم حين أراد كما يقولون أن « يبربر » المورة . فهذا القول يدل على أن الغرب لا يستنكف أن يهفر للإغريق ما اجتروحه من السيئات ، وأن يتذرع بالانتقادات والتهم والدعاوى الباطلة للطعن على القائد المسلم والتشهير به . ولا شك في أن بلوغ تلك الغاية الخلقية من هذا الطريق عمل لا يتفق مع مبادئ الدين ولا العدالة في شيء ولكنها خطة أطلقت لسان هذا المؤلف نفسه بهذا القول :

« لو اطلعت على تاريخ الدبلوماسية كلها ، لما وجدت فيه فصلاً كله زور ومنقصة وتضليل ينكس الأبصار ، مثل ذلك الفصل الذي يشتمل على المفاوضات الأولى لتسكين بلاد اليونان »^(٢) .

(١) لين پول الجزء الأول ص ٤٠٣ .

(٢) المصدر عينه الجزء الأول ص ٤١٠ .

وبينما كانت الحكومات الأوربية تجمع أمرها للعمل على تسوية سمعة إبراهيم ، لكي تتحرر بلاد اليونان ، كان القائد المصرى يصلى العدو نارا حامية . وقد استطاع فى شهر سبتمبر من عام ١٨٢٣ أن يتصل برشيد باشا القائد التركى الذى كان محمدا بمسولنجى Missolonghi منذ شهر . وقد قاومت المدينة المحاصرين مقاومة الأبطال ، لكنها سقطت فى أيديهم فى الثامن والعشرين من شهر إبريل عام ١٨٢٦ .

فلما أثمر الحصار ثمرته النهائية المحتومة ، وسقطت مسولنجى وفتحت بذلك الطريق إلى أثينا ، أيقن جورج كاننج أن مصير اليونان أضخى فى يد الدول ، وأن تدخلها بشكل ما أصبح أمراً لا مفر منه إذا أريد استنقاذ هلاس للحضارة الأوربية . وسرعان ما هداه عقله اليقظ إلى أن دوق ولنجتن Duke of Wellington هو خير من يعهد إليه بتدبير خطة العمل مع قيصر روسيا ، دون أن يفاوض فى ذلك فرنسا وبروسيا والنمسا . وكان ولنجتن قد أعان وهو عطل من الوظيفة أنه على استعداد دائم لخدمة مليكه فى أى منصب شاء ؛ فلما عرض أمر بعثة سانت بطرسبرج على الدوق لم يقبلها فحسب ؛ بل فرح بها كل الفرح ^(١) .

وبدأ ولنجتن حملته السياسية فى روسيا فى شهر فبراير من عام ١٨٢٦ ، وقد وصف جودلا هذه الحملة بقوله : « وقذف بنفسه فى تيار من الدبلوماسية ، تتخلله المآدب الروسية المكونة من الهليون الأصفر والقواقع البحرية . وكانت لياليه كلها كما وصفها بعضهم « بهجة ومرحاً للدوق » ، كما كانت أيامه كلها

(١) الدوق تأليف غليب جودلا طبعه فى لندن هدر و سوتن سنة ١٩٣١ ص ٣٤٦ .

سياسة واستعراضاً^(١) . وقد تمخض هذا الجو المشيع بالمرور والانصراف عن عهد يضمن لبلاد اليونان نوعاً من الاستقلال المقيد ، ترعاه إنجلترا والروسيا .

لكن يلوح أن الدوق قد تجاوز التعليمات التي زود بها . وكان جورج كانتنج^(٢) في ذلك الوقت وزيراً من وزراء الدولة ؛ ومع أنه من الأحرار فقد جعله مركزه أكثر محافظة من (ولنجتن) الرجعي الذي لا يشغل منصباً فيها . ولذلك حصر رغباته في تلك العبارة التي نقلناها من قبل « تقدم بها (الشكاوى التجارية) ولج فيها ، لأننا إذا كان لا بد لنا من إثارة النزاع فعلياً أن نضم المصالح التجارية إلى جانبنا » . وكان جورج كانتنج يدرك أن هذه « المصالح التجارية » في ربيع عام ١٨٢٦ في صف اليونان ، لكنه كان يخشى أن لا يبلغ ارتباطها بها حداً يجعلها ترحب بالعهد الذي وقع في ٤ أبريل عام ١٨٢٦ .

« وكان الدوق يكيف نفسه حسب الظروف ، وإن كان نقاده يحلو لهم أن يظنوا أنه لم يكن يعرف ما يفعل^(٣) » . ومعنى هذا أنه إذا كان ما يقوله جودلا صحيحاً ، كانت الخطة السياسية النهائية التي أدت إلى استقلال اليونان ، من وضع رجل لا يعرف ما يفعل ، ولكنه مع ذلك تجاوز نص التعليمات التي زود بها . ولكن ما لنا ولهذا ، فسواء أكان ولنجتن قد تجاوز هذه التعليمات أم لم يتجاوزها ، فإن الاتفاق الإنجليزى الروسى الذي وقع في ٤ أبريل من عام ١٨٢٦ أصبح حقيقة واقعة ، ويجب النظر إليه على أنه كذلك . ولقد استيقظ على أثره مترنيخ Metternich من سباته ورجعيته ، فسمى جورج كانتنج « آفة العالم^(٤) » .

(١) المصدر عينه ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر عينه في نفس الموضع .

(٣) المصدر عينه في نفس الموضع .

(٤) تاريخ اليونان السياسى من ١٨٢١ إلى الوقت الحاضر جزء أول ص ٣٢٠ .

ولم يلبث مترنيخ أن رأى أن المعايرة لن تغنى عنه شيئاً ، وأن من الحكمة أن يسير الزمن . وظلت فرنسا ترقب مجرى الأمور ، فلما تكشفت لها سارت هي الأخرى مع التيار . وكان ملكها قد وصلته من مصر أربعة جياد وفيل صغير ، أما ابنه ولى العهد فقد أهديت إليه أربعة جياد وليس معها فيل ، في نظير البعثة الحربية البحرية التي أرسلت إلى مصر لتشارك في تأديب اليونانيين ^(١) . وقد امتنع مستشارو شارل العاشر أيما امتعاض من الخطة التي جرت عليها إنجلترا والروسيا ، إذ أخفيتا عنها مكنون دخيلتها . واحتفظ الملك وولى عهده بالفيل والجياد ، وطالبت البعثات الفرنسية أن يتسع عهد ولنجتن — نسلرود Willington Nesselrode حتى يصبح عهداً يتحلى بتوقيع ممثل لفرنسا ^(٢) .

فلما أصر المسيو ده قليل M. de Villèle هذا الإصرار على أن الضمان غير كاف ، وعلى أن تكون فرنسا « أحد المتعاقدين » ، تحول مجرى الأمور ، وتبين أن الدول أخذ ينافس بعضها بعضاً لترى أيها تستطيع أن تكون أكثر زلنى من هذا الكوكب الجديد ، الذى أوشك أن يسطع في سماء جماعة الأمم . وكانت نتيجة هذا التنافس أن عقدت المعاهدة المعروفة بمعاهدة لندن في السادس من يولييه عام ١٨٢٧ . وبمقتضى هذا الاتفاق عرضت إنجلترا وروسيا وفرنسا وساطتها على تركيا بقصد إنهاء الخلاف القائم بينها وبين اليونان .

وقد نصت إحدى مواد هذا الاتفاق على أنه إذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة في خلال شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال ، فإن الدول تتفاوض فيما بينها « لتفرض الهدنة على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من

(١) حملة كريد والمورة تأليف دريو ص ٥٢ .

(٢) تاريخ اليونان السياسى جزء ١ ص ٣٤٥ .

غير أن تشترك هي في الحرب»^(١). وليس في مواد المعاهدة كلها ما يوضح الطريق الذي كانت إنجلترا والروسيا وفرنسا تفكر في سلوكه لبلوغ هذه الغاية ، ولكنه يذكر مع ذلك « أن أمراء الأساطيل المختلفة في شرق البحر الأبيض المتوسط سيتلقون التعليمات الضرورية » ، وقد كتبت هذه التعليمات بالفعل وأصبح من المستطاع تحايلها .

وبينما كانت هذه المناورات الدبلوماسية قائمة على قدم وساق ، لم يكن إبراهيم يضع وقته سدى ، بل استولى في أثناء ذلك على أثينا بعد استيلائه على مسولنجي وضرب الحصار على الأكروبولس Acropolis ، ودار القتال حولها ودافع عنها اليونانيون بقيادة الكولونيل فبثيه دفاع الأبطال . ولكن الدائرة دارت عليهم فولوا اللورد كحرين Lord Cochrane (إيرل دندونالد Earl Dundonald) قيادة الأسطول ، وعقد لواء الحملة البرية للجنرال تشرتش الذي أصبح السير رتشرد تشرش Sir Richard Church فيما بعد . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، ولم يمح ما خط لهم في لوح القضاء ، فسلمت الأكروبولس في الخامس من شهر يونيه عام ١٨٢٧ .

ولا جدال في أن هذا القضاء المبرم قد عجّل بتوقيع معاهدة لندن في السادس من يولية سنة ١٨٢٧ . وذلك لأن الدول أيقنت أنها إذا لم تتدخل في الأمر تم لإبراهيم الظفر . وكان أعدى أعداء الإغريق هو ما طبعوا عليه من انقسام لا تشفى منه نفوسهم . فقد كانت الجمعيات المتنافسة والرؤساء المتعادون يتقاتلون على السيادة ، بينما كان الحصار مضروباً على مسولنجي ، ولم يحل شهر مارس من عام ١٨٢٧ حتى عمت الفوضى صفوف الإغريق . وقد قالت في ذلك دائرة المعارف البريطانية

(١) المصدر عنه ص ٣٦٦ .

« استعرت نار الحرب بين رومليوتس Rumeliotes ، موريوتس Moreotes وبين كل زعيم وزعيم ؛ وأخذت الأحزاب المتنافسة تضرب بعضها بعضاً بالدفاع من قلعتي نوبليا مستهزئة بالحكومة العاجزة ، على مرأى من المدينة البائسة » .
وبعد أن برهنت دائرة المعارف البريطانية على أن أغريق عام ١٨٢٧ ، مهما بلغت شجاعتهم ، قد أضخوا وقتلوا جماعات من الرعاع ، قطع النزاع الحزبي أوصالهم بعد أن برهنت على ذلك قالت :

« وبعد أن ظل إبراهيم عدة شهور لا يعمل شيئاً بدأ ينفذ خطته التي ترمى إلى تخريب البلاد تخريباً منظماً . ولكي تحول الدول بينه وبين هذا العمل ، قررت أن تتدخل في الأمر ، فتقوم أساطيلها بمظاهرة مشتركة لكي تقف سير القتال ، وترغم إبراهيم على إخلاء بلاد المورة » .

ويتضح من هذا أن ما عناه جورج كاننج إلى إبراهيم من أنه « يبربر » المورة كان يقصد به أن تتذرع به الدول للتدخل في المسألة اليونانية . ولكنهم يقررون مع ذلك أن إبراهيم ظل لا يقوم بعمل ما عدة شهور . ولذلك لا يبعد أن تكون الدماء التي أريقت ونارت من أجلاها نفوس أوربا ، لم يرقها سيف إبراهيم ، بل أراقها سيوف اليونانيين في كفاحهم الداخلي . ذلك بأن الأحقاد الأخوية ، إذا استثير دفينها ، تعمى أبصار الأشقاء وتذهب بعة ولهم . ومن هم الذين يستطيع إبراهيم أن يفاوضهم إذا كانت القرى تستسلم إليه واحدة إثر واحدة ، وإذا لم تكن في صفوف اليونانيين ساطة تتولى أمورهم وتمثل القانون والنظام ؟ ولا يبعد أن يكون إبراهيم قد اضطر إلى اتخاذ إجراءات صارمة ، لا لقسوة في طبعه بل بسبب الفوضى التي ضربت أطنائها في بلاد اليونان . ولكن الذين يستطيعون في عرضه ، ويصوبون سهامهم إلى سمعته ، يغفلون عن هذه الحقائق ، ويفضلون أن يصوروه

بصورة الرجل الهمجي المتعطش لسفك الدماء .

وفي استطاعة الإنسان أن يتبين مقدار الصعاب التي كان يواجهها إبراهيم من الرسالة الرسمية التي بعث بها أمير البحر ده رني Admiral de Rigny إلى وزارة البحرية ، والتي يقول فيها : « يفرض الناس عادة أن الحكومة اليونانية سلطة معترف بها ، إن لم يكن في البلاد كلها فلا أقل من أن يكون في المناطق التي لا تخضع لحكم الأتراك ، وأنها هي التي تسير الحركات الحربية ، وأن لها أسطولاً يأتزم بأمرها . وهذا ظن بعيد عن محجة الصواب ؛ فالجيش إذا وجد يقوده اليوم ضابط وغدا ضابط آخر ؛ أما السفن فهي ملك لأصحابها ، تخضع لأمرهم ، وبحارتها يخدمون الميوليين Miaulis يوماً ثم يتركونهم ليقوموا بخدمة الكناريين Canaris يوماً آخر وقلما يثبتون على ولائهم لزعيم^(١) . »

ولم يكن الساحل اليوناني إلا مباءة للقرصان وممشى لهم ؛ وقد صور لنا دون Douin صورة البلاد في ذلك الوقت بقوله :

« لا تستطيع سفينة أن تسير بمفردها عشرة فراسخ حتى تهاجم . ذلك بأن القرصان يكمنون وراء صخورهم ينتظرون قدوم السفن التجارية ، حتى إذا وقفت واستيقنوا من عزاتها ، خرج اللصوص عليها من مكانهم المجهولة في قوارب الصيد . وهم لا يخرجون إلى البحار إلا إذا وثقوا من قدرتهم على غنيمتهم ؛ وليس في استطاعة القبض عليهم ولو جهزت لذلك خمسون بارجة حربية ؛ ولا سبيل إلى تطهير البحر منهم إلا إذا أنزلت حملة إلى البر وطاردتهم في داخل البلاد »^(٢) .

وهذا ما قام به إبراهيم بالضبط . فخر به إذاً كانت حرب المدينة على القرصنة ،

(١) من ده رني إلى الوزير في ٢٣ مارس سنة ١٨٢٦ نقله عنه دون في الصفحة الثامنة من كتابه « نواريين » .

(٢) المصدر عينه ص ٤ .

حرب الشائيل الكريمة على التخريب والإتلاف ؛ ولكن عرضه أصبح غرضاً
 لسهام الكالمين ، لا لشيء إلا أنه مسلم ، ولأن العابثين المفسدين مسيحيون .
 ولسنا نحاول بهذا القول أن ندخل في روع القارئ أن إبراهيم خليف بأن يثبت
 اسمه في سجل الشهداء أو القديسين ، ولو حاولنا لما استطعنا وأمامنا قول موريه
 : Mouriez

« كان سقوط مسولنجى إيذاناً بسقوط أثينا وكل بلاد اليونان . وعاد
 إبراهيم بعد ذلك إلى أرض البلوبونيز Peloponnesus مغضباً لما لحقه من
 الخسائر أثناء الحصار . وهناك أخذ يثار لنفسه ، فارتكب في هذه البلاد من
 الفظائع ما يربى على ما ارتكبه من قبله الأتراك والألبانيون . وكان الذي أثار
 غضبه بوجه خاص ما اقترفته عصابات الكلفت (اللصوص) الذين كانوا
 يفرون أمام فيالقه ، ثم يهاجمون حراس مؤنه ومخافره . ولما عجز عن القبض
 عليهم خرب الديار ليثار لنفسه منهم ، فقطع أشجار الزيتون وأحرق الزرع
 وقتل العزل من الأهلين »^(١) .

وتلك الأمور هي التي بررت قول جورج كاننج : « كثيراً ما رأينا الجانبين
 المتقاتلين يسفكان دم الأسرى » ؛ ولكن إبراهيم قد التجأ إلى القصاص ،
 ولم يبدأ بالعدوان حتى شرع اليونانيون يطلقون النار على اليونانيين ، وحتى عجز
 عن أن يجد منهم وراء صفوف القتال من يستطيع أن يفاوضهم ، وحتى خرقت
 العصابات المسلحة كل قوانين الحروب المتمدينة .

قد لا يكون في هذه الحقائق كلها ما يبرر مسلكه ، ولكن فيها ما يدمغ
 موقف الدول بالنفاق الخبيث ، وما يبرر قول لين بول الذي نقلناه من قبل وهو :

(١) موريه في كتابه السالف الذكر ص ٢٩٨ .

« لو اطلعت على تاريخ الدبلوماسية كلها لما وجدت فيه فصلا كله زور ومنقصة وتضليل ينكس الأبصار ، مثل ذلك الفصل الذى يشتمل على المفاوضات الأولى لتسكين بلاد اليونان » .

ومما يعلى من قدر الفيكونت استرتفورد ده رد كلف أنه قبل أن يعين سفيرا لجلالة ملك بريطانيا فى الآستانة ، قرر أن لا تعود اليونان مرة أخرى إلى حكم الأتراك . وفى ذلك يقول صاحب سيرته : « إنه أرسل لىكى يعمل لبلوغ هذه الغاية . ومع أنه عرف من أول الأمر ما سوف يلاقيه من العقبات ، فإنه جدد فى العمل لهذه القضية بكل ما فى طاقته » ^(١) ، وليس يسع المؤرخ المسيحى إلا أن يحمده له نبيل مقصده ، وأن يعجب لثباته وصلابته ، ويغتبط بما حققه من غايته ؛ ولكنه لا يستطيع أن يرضى بالمثالب التى وجهت إلى اسم إبراهيم ، ولا بالسجف التى تسدل عادة على ما اتصف به اليونانيون من نقائص ، وما استباحوا من دماء لم يفرقوا فيها بين أعدائهم الأجانب وخصومهم من أبناء البلاد .

(١) لين پول الجزء الأول ص ٣٩٨ .